

الفصل الخامس

البعد الاجتماعي في دراسة التاريخ والتراث القومي

الدعوة الإسلامية وتناقضات المجتمع المكي

يخطئ كثير من من يعتقد بأن الدعوة الإسلامية بكل مضامينها الدينية والسياسية والاجتماعية قد ظهرت في فراغ وبلا مقدمات وتراكمات سياسية واجتماعية وتاريخية عميقة الجذور ويظنون من فرط سذاجتهم ومالصقوه بها في العصور اللاحقة من المفاهيم الأسطورية والخرافية والميتافيزيقية الفاسدة والمنحرفة في الفهم والتفسير أنها مجرد واقعة أو مجموعة وقائع خارقة للعادة تجاوزت معها الأرض والسماء قوانينهما الطبيعية ونظامهما الكوني لبقدا لنا هذه المعجزة أو الحادثة الاستثنائية التي لن تتكرر ولن يرق العقل إلى تفسيرها وفهمها على أسس منطقية فهما عقلياً ومنطقياً ، بل ولايجوز له أن يفعل ذلك حتى لمجرد المحاولة .

فهذا الموقف الذي كانت وماتزال تدور حوله مجمل الأفكار السلفية الرسمية والحفاظة المرتبطة بالسلطة دائماً من مذاهب وأحزاب سياسية ودينية مختلفة عبر مايزيد على ألف وثلاثمائة وخمسين عاماً وحتى اليوم لم تسم إلى بذلك إلى هذه الحركة الإنسانية والتاريخية الهامة التي شكلت بمعنى ما نقطة إنطلاق مرحلة تاريخية معينة في حياة المجتمع العربي بصفة خاصة والمجتمع الإنساني بصفة عامة ، وتمعن في تشويهاها وتحريفها بصورة مباشرة فحسب ، ولكنها قد حولتها بطريقة غير مباشرة بعد أن أفرغتها من مضمونها الاجتماعي والرايديكالي الحقيقي بعدمقتل عمر وتولى عثمان إلى مجرد حادثة إستثنائية وعرضية أو مايشبه الزلّة والخطيئة التي يجب ألا تتكرر بالمعنى السياسي والاجتماعي ، ويكنى تحويلها إلى مجرد عقدة ذنب نفسية يستعيف بالبكاء والتندم عليها حول المقابر وفوق المنابر وعلى قارعة الطريق ، كل من كان قد حلم من خلالها بإزالة وشم العبودية من ظهره ووصول رغيف الخبز الكريم إلى بطنه ،

لإستعداداً للإلتقاء بها فى حياة ما بعد الموت فقط بعد أن عجزت عن أن تحقق لهم ذلك فى الحياة الدنيا، أو حيل بينهم وبين تحقيق ذلك فى حياتهم على الأصح؛ ولقد حاول الذين استطاعوا فرض هذه الحيلولة من الفئات والطبقات المستغلة والمسيطرة أن يمنوا غيرهم فى الآخرة بتحقيق كل ما حرموهم منه فى هذه الدنيا، إمعاناً منهم فى المزيد من قهرهم واستغلالهم وظلمهم والقضاء على كل نزعة أو ميل لمقاومة هذا الظلم والاستغلال، بل وجعل القبول والرضا بالأمر الواقع مقياساً للتقوى والزهد والفضيلة التى حرم منها الأغنياء والظالمون والمستغلون، أو حرموا أنفسهم منها، وأثروا بها الفقراء والمظلومين دونهم، جزاهم الله خيراً !!!

وإذا كنا اليوم وبعد ما يزيد على ألف وأربعمائة عام لا نستطيع — إسوة بمن سبقونا من السلف الصالح على الأقل — أن نقبل بهذا الفهم وهذا التفسير الإقطاعى الطبقي المتخلف لهذه الحقيقة الإنسانية والتاريخية الهامة كمجرد واقعة هبطت من الجهول وردت إليه بنفس السرعة تاركة لكل المتعلقين بذكراها مجرد أمل اللقاء بها فى حياة ما بعد الموت، فإنه يتوجب علينا أن نقدم الفهم والتفسير الاجتماعى والتاريخى البديل، وهو الأمر الذى نرغب فى أن نبحث عن مجرد إشارات أولية له على هذا الطريق الصعب فى مجمل الصفحات المتبقية القادمة من هذا البحث ومن منظور اجتماعى وعلمى محايد.

ونظرة لإجتماعية عاجلة على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والطبقية للمجتمع المكي القديم قبيل ظهور الدعوة الإسلامية تقدم لنا المدخل الأساسى الأول لتفسير وفهم ما حدث إبان ظهور الدعوة وما لقيته من الرفض والمقاومة الشرسة فى مكة والقبول والحماية فى المدينة، ثم ما حدث بعد ذلك ابتداء بفتح مكة مروراً بوفاة الرسول وأحداث السقيفة وانتهاء بمقتل عثمان وتولى معاوية وتحويل الخلافة إلى ملك.

تناقضات المجتمع المكي القديم

فلقد كان يوجد فى مكة وما حولها من قبائل ومضارب العرب طبقة واسعة النطاق من الإقطاع العشائرى والاقتصادى التجارى الكبير، المرتكز على أعمال المضاربة والتجارة الواسعة التى كانت تأتى من الهند إلى اليمن ومنها

تنقل شمالا بطريق البر عبر مكة إلى الشام وسواحل البحر الأبيض لتعبر البحر إلى أوروبا فيما عرف برحلة الشتاء والصيف هذا من جهة ، وعلى أعمال الإغارة والحروب من قبل بعض القبائل على البعض الآخر والإستيلاء على ممتلكاتها وأراضيها وسبي أهلها كعبيد من جهة أخرى ، فيما يمكن أن نطلق عليه بالحروب الإقطاعية ، وليس مجرد الثارات القبلية والنزعات والعادات الجاهلية التي دأبت كل السير والتفسيرات السلفية على تعليل تلك الحروب إما في ضوء مفاهيم أدبية ولغوية مجردة أو تحت دوافع دينية وأخلاقية مثالية لا تقوى على الاحتكام إلى العقل وقوانين الواقع ، فكتب السير للأسف - كما يقول أحمد عباس صالح - لا تحاول أن تتعمق أسباب الصراع إلى أبعد من المظاهر الدينية ، ولكنها على كل حال تقدم لنا المادة التي نستطيع منها أن نضع أيدينا على الأسباب المادية في الصراع ^(١).

فأنا لا أستطيع اليوم أن أقبل أبداً وفقاً للمفهوم الأدبي واللغوي بأن قصة الحرب التي دامت بين عبس وذيان مدة طويلة والتي عرفت بحرب (داحس والغبراء) ودونت عنها عشرات ومئات القصائد الشعرية والقصص الأسطورية بأن سببها الوحيد كانت هي تلك الفكرة الساذجة عن ارتكاب خيانة أو خدعة أثناء منافسة سباق حصانين أحدهما لقبيلة عبس والآخر لذيان وأسمها «داحس والغبراء» وذلك بقيام أحد المتنافسين بدق مسمار في حافر حصان الآخر قبل بدأ السبق على حين غرة وتسبب في هزيمته ، فقامت الحزب إياها بمجرد اكتشاف هذه الخدعة ، لأنه على افتراض أن هذه الحرب قد حدثت بالفعل وهو الأرجح فإن السبب المذكور لنشوبها غير مقنع ويتميز بالساذجة المتناهية التي تجعل من واقعة الحرب الحقيقية مجرد فكرة أسطورية بحتة لا تختلف عن القول بأن حصاة صغيرة قد ألقيت في البحر وتسببت في تحريك مياهه وتحول إلى أمواج وعواصف صاخبة تحطم السفن وتكتسح اليابسة . ويجانب ما ذكر عن حرب داحس والغبراء قيل ما هو أكثر منه ومن نفس المنظور الأدبي واللغوي الفولكلورى المجرد عن حرب «البسوس» تلك

(١) أحمد عباس صالح : اليمن واليسار في الإسلام ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بيروت سنة ١٩٧٢ ، ص ٥٣ .

(م ١١ - المدخل الاجتماعي)

المرأة اليمنية الماكرة التي قدمت من الجنوب واستطاعت بواسطة ناقة جرباء أن تثير حرباً طاحنة بين عرب الشمال لمدة سنين طويلة قضت على الحرث والنسل والأخضر واليابس كما تروى أساطير وحكايات « الزير سالم بن ربيعة » البطل الأول لهذه الحرب ، فإذا ما افترض بأن واقعة هذه الحرب قد حدثت أيضاً وهو الأرجح فإن السبب المتميز بالسذاجة أيضاً يحيل الواقعة الاجتماعية والتاريخية (الحرب) إلى واقعة أسطورية تماماً إذا ما أخذ به كعلة وحيدة لتفسير العقلي والمنطقي والعلمي أيضاً ، وهي قضية تساوى بالضبط الأسطورة القائلة بأن الفأر هو الذى هدم سد مأرب الذى لو أخذ بها كعلة وحيدة لتفسير الحدث تفسيراً تاريخياً وعقلياً لوجب التسليم بأن السد هو مجرد فأر آخر أو حيوان أو شيء مادى أقل حجماً وقوة من الفأر الذى استطاع تهديمه (١) .

ذلك أنه إذا كان هناك حقيقة من الأسباب والتناقضات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمتغيرات التاريخية ما يقوى على تقديم التفسير الحقيقى المتكامل لتهدم سد مأرب بدلا من مجرد الرمز الأدنى والفولكلورى لهذه القضية المتمثل فى « الفأر المسكين » فإن هناك من الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية أيضاً ما يقوى بنفس الدرجة على تفسير واقعة حرب داحس والغبراء وحرب البسوس وغيرها من وقائع وأحداث وتناقضات المجتمع المكى القديم بدلا من مجرد مسمار دق فى حافر خيل أو ناقة جرباء جرى بها من اليمن إلى مضارب ربيعة وبنو عمومهم بنى مرة ، ذلك أنه إذا كنا اليوم لا نعرف عن مثل هذه الأحداث إلا مثل هذه الرموز الأسطورية والفلكلورية المجردة فإنه يتوجب علينا فى ضوء مناهج العقل والعلم الاجتماعى الحديث أن نعيد النظر فى ذلك جذرياً ونبحث عن الأسباب الحقيقية التى نستطيع من خلالها أن نقوى على كتابة وقراءة تاريخنا العربى والإسلامى كتابة وقراءة علمية وجدلية صحيحة ، وهو الأمر الذى نحاول من خلال هذا الجهد أن نبحث عن موضع قدم جديدة على هذا الطريق المقفول حتى الآن .

(١) راجع حمود العودى : التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية ، دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، مركز الدراسات اليمنية صنعاء ١٩٨٠ ، ص ٢٧ إلى ٢٩ .

ولإذا كانت وقائع حرب داحس والغبراء وحرب البسوس وغيرها من الأحداث التي شهدتها المجتمع المكي القديم في مرحلة مبكرة لا تقدم لنا إلا القليل من مؤشرات الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وتناقضاتها من خلال ما تنقله إلينا أدبيات اللغة الشعرية والنقصية القولكلورية ، فإن مجمل الوقائع التي دارت إبان ظهور الدعوة الإسلامية وما قبلها بقليل وما بعدها أيضاً تستطيع أن تقدم لنا من المؤشرات والدلالات الاقتصادية والاجتماعية ما هو أكثر وضوحاً وتيسيراً للقدرة على تفسير الوقائع والأحداث التاريخية تفسيراً اجتماعياً وتاريخياً واقتصادياً صحيحاً ، فسوق عكاظ لم تكن سوقاً ومنتدأً للقصائد الشعرية وحدها كما يظن الكثيرون ولكنها كانت قبل ذلك وبعده وأهم منه عبارة عن « بورصة » تجارية ضخمة تعقد سنوياً لإبرام العقود وإجراء المضاربات وأعمال السمسرة والمراباة التجارية لطبقة واسعة من التجار المنتشرين في أنحاء الجزيرة العربية ، فلقد كان وجود هذه السوق هو عبارة عن نقطة ارتكاز لما عرف برحلة الشتاء والصيف تبدأ منها وتنتهى إليها . فالنظام القبلي - كما يقول أحمد عباس صالح - لم يكن هو المحرك الأساسي للصراعات بين القوى المختلفة في مكة ، إنما الحرك الحقيقي هو الثروة والسلطة . وقيمة التمرد تتحدد لا بتبعيته لقبيلة قوية ، بل بما يملك من مال وما يحوز من سلطة (١).

تناقضات المجتمع الجديد

ولقد كان موقف هذه الطبقة في مجتمع المكي بالذات من الدعوة الإسلامية الجديدة منذ لحظاتها الأولى بمفهومها الأصلي المعارض والرافض للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة في ظل سيطرة هذه الطبقة هو أكثر الدلالات التاريخية وضوحاً ، فلقد كانت الدعوة وصاحبها محكومة إلى حد كبير بطبيعة المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية السائدة وانعكاسا وتعبيراً عنها بطريقة ومفهوم معين يتعارض ومفاهيم تلك الطبقة التجارية والأرستقراطية السائدة في ذلك المجتمع إلى حد كبير ، ولم تكن مجرد تعبير عن مفاهيم دينية وغيبية مثالية بحثة منبثقة من مفاهيم مجردة ومنفصلة عن الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي السائد .

(١) أحمد عباس صالح : اليمن واليسار في الإسلام ، ص ٤١ .

لقد كانت هي التعبير المباشر إلى حد ما وبشكل ما عن طبقة اجتماعية مسحوقة في المجتمع من عبيد وفقراء وصعاليك . . . الخ . في مواجهة طبقة إقطاعية عشائرية وأرستقراطية تجارية ممعنة في انظلم والاستغلال والقهر والمفاسد الأخلاقية والاجتماعية ، بدءاً بأعمال الغزو والإغارة والنهب والقمار والمراباة والظلم ، مروراً بأعمال السبي وتجارة الرق وأنتهاء بقتل ووآد الأطفال من الإناث . . الخ^(١) . وذلك في مقابل المساواة والكف عن المفاسد الاجتماعية والظلم الاقتصادي والعمل على تحقيق فكرة الأخوة الإنسانية والعدل الاجتماعي التي أتت بها دعوة محمد .

فلم يكن الخلاف والعداء والمقاومة الشرسة التي لقيها محمد وأتباعه من قبل الأرستقراطيات السياسية والاقتصادية في المجتمع المكي القديم هو عداء وخلاف ديني بقدر ما أنه كان خلافاً وتناقضاً اجتماعياً وطبقياً في الأساس ، ذلك أن أكثر الذين وقفوا من الدعوة الإسلامية — كما يقول أحمد عباس صالح — موقفاً عدائياً إلى أقصى درجه من العداء هم الأغنياء سواء من أمية أو من هاشم أو من غيرها من القبائل ، وقد ضمهم تحالف قوى أساسه المصلحة الاقتصادية وحدها ضد الدين الجديد الذي كان يهدد مصالحهم^(٢) . ويؤكد هذه الحقيقة التاريخية انتشار مبادئ الدعوة في أوساط الفئات والطبقات المهقورة في المجتمع من العبيد والموالي وفقراء وصعاليك المجتمع المكي ، ولإمعان الأرستقراطيات السياسية والاقتصادية للطبقة المسيطرة من أمية وغيرها في مقاومة الدعوة ورفضها حرصاً على مصالحهم ونكاية في محمد وترفعاً عن تبعه من أراذل الناس وما يطمح إليه من المساواة بين هؤلاء « الأراذل » والعلمان والعبيد وبين سادات قريش وبيوتاتها العريقة .

هذا الأمر الذي لا تخفى وقائع التدليل عليه سواء من خلال ما تضمنه القرآن أو روثه الوقائع التاريخية لبداية الدعوة وتطورها ، والتي غالباً ما تروى

(١) راجع كتابنا : التراث الشعبي وعلاقته بالتنمية في البلاد النامية ، دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمني ، ص ٣٥ إلى ٣٨ .
(٢) أحمد عباس صالح : اليمن واليسار في الإسلام ، ص ٤١ .

كوقائع وحوادث تاريخية بحثة وعابرة دون أن تختزل منها الحقائق الاجتماعية التي من هذا النوع الذي نتحدث عنه هنا وذات الأهمية القصوى .

وقس على ذلك ما يمكن استخلاصه من تقبل مجتمع المدينة لفكرة الدعوة وصاحبها بدون عوائق تذكر تحت تأثير سببين رئيسيين : أحدهما طبيعة التكوين الاجتماعى لمجتمع المدينة كقبائل وجماعات مهاجرة وقادمة أصلاً من جنوب الجزيرة « اليمن » تتميز بمضامين اجتماعية وحضارية ونفسية معينة سبق تحليلها فى الفصول السابقة من هذا البحث ، وتفصل بينهم وبين أرسقراطيات وبيوتات مكة من الناحية الاقتصادية والسياسية مسافات كبيرة ، كمرکز احتكار تجارى وسياسى مؤثر على مجمل الجماعات الأخرى خارج مكة فى المدينة وغيرها ، حيث كانت مبادئ الدعوة هى أقرب إلى ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية والنفسية . وحيث وجدوا فى هذه الدعوة فرصة لتأكيد وجودهم سياسياً واجتماعياً بصورة أكثر فاعلية من جهة ومنطلقاً لمنافسة المجتمع المكي ومحاوله لكسر احتكاراته السياسية والاقتصادية ، من جهة أخرى ، حتى واثقهم فرصة تحقيق حلمهم يوم الفتح بالفعل ، حيث حسم الأمر نسبياً فى صالح الدعوة الجديدة ومن تعلق بها من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة بالذات الذين خاضوا معركة الفتح بقيادة « سعد بن عبادة الأنصارى » (فتح مكة) وأرادوا يومها أن يحققوا انتصاراً سياسياً واجتماعياً وتاريخياً عميق الدلالة ، ويعبر عن التناقضات القديمة بين المجتمع المكي والمجتمع المدنى ، وليس مجرد انتصار للدعوة الإسلامية بمفهومها الدينى وحده .

فالمتبع للأحداث برؤية اجتماعية وعلمية مجردة منذ بيعة الأنصار الأولى والثانية لمحمد ، ثم إيوائه ونصرته هو وأصحابه من مهاجرة مكة ، وحتى يوم الفتح لا يستطيع أن يخرج بدون التسليم بهذه الحقيقة ، حقيقة الصراع والتناقض بين قاعدة المجتمع المكي ، وفقرائه وعبيده ومعهم الأنصار فى المدينة من جهة ، وطبقات وأرسقراطيات قريش فى مكة وغيرها من جهة أخرى ، فليس بالشاذ إذن - كما يقول الدكتور محمد عماره - أن يقع الخلاف بين قريش والأنصار بل لقد كان الطبعى والمنتظر أن يقع هذا الخلاف . .

فقريش كانت تشعر بأن الأنصار بعد الهجرة والاسلام يحاولون أن يحتلوا بين العرب مكاناتها هي قبل الإسلام ، ومدينتهم يثرب قد أنتزعت أهمية العاصمة من مكة ، ناهيك عن دخول الأنصار في جيش الفتح على قريش في عقر دارها (١) .

فلقد كانت قيادة جيش الفتح في ذلك اليوم بيد سعد بن عباد الأنصاري ، والذي بالرغم من أن الرسول قد أمر بأن لا يبدأ المسلمون بقتال إلا أن سعد بن عباد - كما يقول الدكتور محمد عمارة أيضا - يبدو أنه كان يريد أن يستأصل شأفه القرشيين الذين لم يدخلوا بعد في الإسلام ، وهم الذين سبق وأن قبضوا عليه عند رجوعه ليثرب من بيعة العقبة وعادوا به لمكة وعذبوه فجعلوا يده إلى عنقه بنسعه ، وجعلوا يضربونه ويجرون شعرة وكان ذا جمه (٢) .

وحينما مر سعد بن عباد يوم الفتح بأبي سفيان زعيم قريش ، نظر إليه وقال : اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا !! ولما سمع أبو سفيان ذلك هرع إلى الرسول وناداه : يا رسول الله أمرت بقتل قومك ؟ وروى له ما قال سعد ، ثم ذهب العباس بن عبد المطلب إلى الرسول وقال : يا رسول الله هلكت قريش ، لا قريش بعد اليوم : إن سعد بن عباد قال كذا وكذا ، وأنه ضيق على قريش ولا بد أن يستأصلهم ! كما ذهب عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف إلى الرسول فقالا له : يا رسول الله ، والله ما نأمن سعداً أن تكون منه في قريش صولة (٣) ! .

وهكذا نلاحظ بوضوح التقاء الروابط الدموية والارستقراطية القرشية في ذلك اليوم سواء من كان منهم قد أسلم أو ممن لا يزال على الكفر في مواجهة منافسي الأُمس ومتغلبى اليوم من المهاجرين والأنصار وسواد

(١) د . محمد عمارة : الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت - الطبعة الأولى عام ١٩٧٧ ، ص ٧٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ٧٥ ، وأنظر في ذلك أيضاً نهاية الأرب ج ١ ص ٣١٧ .

(٣) د . محمد عمارة : الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية ص ٧٥ و ٧٦ .

شعب مكة نفسها والحزيرة بأسرها ، هذه الروابط التي لم يستطع الرسول نفسه أن يتجاهلها ، حينما هدأ من روع أبي سفيان وغيره قائلا : يا أباسفيان اليوم يرم المرحمة اليوم أعز الله فيه قريشا . وذلك فيما يشبه التناقض لما قاله قائد فتحه سعد الذي أمر بعزله^(١) . ومع ذلك فقد ظل الائتلاف القوي بين الأنصار والمهاجرين في السلطة وتنحية وتقليص كل المصالح المادية والمعنوية لأرستقراطيات مكة القديمة وغيرها هو المنقوم الأساسي الأول لبناء المجتمع الجديد ودولته الجديدة التي ظلت تتخذ من المدينة عاصمة لها بدلا من مكة رغم فتحها كأحد المؤشرات والدلالات المؤكدة لكل ما سبق رغم أهمية مكة الدينية .

تحالف الأنصار والمهاجرين : من نقطة الضعف حتى التصفية

وبعد وفاة الرسول جاءت أحداث السقيفة كأول نقطة ضعف غير مباشرة في صف التحالف القوي للمهاجرين والأنصار بتنحية المهاجرين للأنصار وإنفرادهم بالسلطة ، كما بدء مجرى الأحداث من جديد يتحول بصورة مباشرة في الاتجاه الآخر بعد مقتل عمر وتولى عثمان ، وحسمها بصورة نهائية في صالح الخط المنضاد في عهد معاوية : خط الأرستقراطيات السياسية والاقتصادية والطبقية القديمة في البيت الأموي وغيره من بيوتات مكة القديمة وطبقاتها المسيطرة من جديد .

فاجتماع السقيفة مثلا وما حدث فيه من خلافات بعد وفاة الرسول مباشرة وما انتهى إليه من اختيار أبي بكر الصديق خليفة للرسول (صلعم) له دلالة سياسية واجتماعية واقتصادية لاتقل أهمية عن دلالاته الدينية ، فإذا ما عدنا إلى ظروف وأوضاع ما قبل موقف السقيفة بقليل عندما بدأت الدعوة الإسلامية وطوال مدة انتشارها في عهد الرسول وما رافق كل ذلك من صراعات وحروب ومقاومة شرسة من قبل بيوتات مكة الكبيرة وقريش بعامة لوجدنا بأن النظام القبلي لم يكن هو المحرك الأساسي الوحيد للصراعات بين القوى المختلفة في مكة قبل بدء الدعوة وبعد بدئها . ولكن المحرك الحقيقي - كما يؤكد أحمد عباس صالح - هو الثروة والسلطة فقيمة الفرد كانت تتحدد

لابتبعيته لقبيلة قوية بل بما يملكه من مال وما يحوز من سلطة ، وعند ظهور الدعوة بمفهومها الإجتماعى المعارض للأوضاع السائدة كان أكثر الذين وقفوا منها موقفاً عدائياً إلى أقصى درجة من العداء هم الأغنياء سرءاء من أمية أو من هاشم أو غيرها من القبائل ، وقد ضمهم تحالف قوى أساسه المصلحة الإقتصادية وحدها ضد الدين الجديد الذى جاء لتهديد هذه المصالح^(١) . وبمجرد وفاة الرسول بدأ أصحاب هذه المصالح المفقودة يعدون لاستعادتها ، وكانت أول خطوة تحققت فى اجتماع السقيفة بعد وفاة الرسول مباشرة هى شق التحالف الثورى النقي والمتماسك للمهاجرين والأنصار أصحاب المصلحة الحقيقية فى الدعوة وحملتها الأقوياء بإثارة سوء التفاهم فيما بينهم حول الخلافة والسلطة حيث انتهى الأمر إلى تقليص دور الأنصار بزعم سعد بن عباد فى السلطة ، لكنها مع ذلك لم تخرج من دائرة هذه الكتلة المتماسكة القوية ، حيث ربطت بأفضل من فى قريش من المهاجرين وأقرب الناس إلى محمد وهو أبى بكر الصديق ومن بعده عمر بن الخطاب الذى لم يكن يقل عنه تعبيراً وتمسكاً بجوهر الدعوة ومثلها الدينية والاجتماعية النقية ، وبمجيء عثمان وهو من أغنى أغنياء البيت الأموى بدأ جناح الاقطاع والبرجوازية الأموية القديمة ينقض على السلطة مباشرة ويستعيد امتيازاته الاقتصادية الضخمة على يد عثمان الذى لم يكن مقتله مجرد خطيئة أو فتنة دينية بحجة كما يفسرها الكثيرون بسذاجة ، بل إن له دلالة اجتماعية واقتصادية وطبقية مرتبطة بممارسة الظلم من قبل ولاته فى الأقاليم من البيت الأموى المقرب إليه ، وإطلاق أيديهم لامتلاك الضياع والعقارات الخاصة التى كانت محصورة عليهم وعلى غيرهم فى عهد عمر ومن قبله ، والتصرف فى أموال الدولة ومواطنيها كيف شاءوا^(٢) ودلالة ثورة وطنية ضد هذا الظلم امتدت من مصر والكوفة بالعراق إلى المدينة مقر الخلافة وعاصمتها ، فنذ عهد عثمان كما يقول « الدكتور أدونيس » بدء التناقض بين قوى المجتمع العربى الإنتاجية وعلاقات الإنتاج القائمة أو علاقات الملكية ، إنه بتعبير آخر بداية تاريخ الصراع بين

(١) أحمد عباس صالح : اليمن واليسار فى الإسلام ١ ص ٣١ إلى ٤١ .

(٢) راجع د . محمد عمارة : الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلاميه ، ص ٩٤ إلى ٩٨ .

الطبقات الحاكمة والطبقات المحكومة (١)

فقد تغيرت إستراتيجية القوى الإقطاعية والرجعية من مقاومة الدعوة في عهد الرسول إلى تقليص نفوذ جانب من أنصارها الحقيقيين الأقوياء من الأنصار بعد وفاته مباشرة في اجتماع السقيفة ، والإنقضاخ عليها في عهد عثمان ونصفية الجانب الآخر نهائياً من المهاجرين ، حيث بدأت عملية ممارسة الإضطهاد ضد عناصر صدر الدعوة الإسلامية الأقوياء أو ما يمكن تسميته - كما يرى أحمد عباس صالح - باليسار الإسلامي الثوري ممثلاً في علي بن أبي طالب (رأس اليسار) وعبدالله بن مسعود وأبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر وغيرهم ، فعبدالله ابن مسعود يعزل من وظيفته كخازن لبيت المال في الكوفة ويهان لأنه طالب بوفاء حق لبيت المال على أحد قرابة عثمان ، وأبو ذر الغفاري يبنى في صحراء الربذة ، ويحرم من عطائه حتى إذا ما جاءه الموت لم تجد زوجته كفناً تكفنه حتى تصدق عليه رجل بردائه فتكفن به ، وذلك لمقاومته تشريعات الملكية المطلقة التي صدرت في عهد عثمان واعتباره أن أموال بيت المال هي مال المسلمين وليس للخليفة أن يتصرف فيه كيف يشاء ، بل كما يشاء المسلمون . وذلك في مقابل الاتجاه المضاد والمسيطر على السلطة لعثمان ومعه معاوية الذي يرى أن المال مال الله وبالتالي فإن للخليفة أن يتصرف فيه كيف يشاء لأنه خليفة الله ، وقد أهين عمار بن ياسر لدفاعه عن أبي ذر ، وحينما تدخل على محتجاً قال له عثمان : ماأنت بأفضل من عمار وماأنت أقل إستحقاقاً للنبي من أبي ذر (٢) .

ولقد كانت قصة رحيل أهل مصر والكوفة والبصرة إلى المدينة والاشتراك في محاصرة عثمان وقتله بعد أن عرضوا عليه مطالبهم وشكاوهم أكثر من مرة دون جدوى هو بداية الصراع الدموي والفكري والطبقى لكلا التيارين على طول المراحل التالية من التاريخ الإسلامي ، فحروب الشام بين علي ومعاوية لم تكن مجرد المطالبة من على بشرعية الخلافة دينياً بدلاً من معاوية بل إن للقضية

(١) د . أدونيس : الثابت والمتحول ، بحث في الابداع والاتباع عند العرب ، الجزء الثاني الطبعة الأولى ١٩٧٧ ، دار العودة بيروت ، ص ٦٣ .
(٢) أحمد عباس صالح : اليمن واليسار في الإسلام ، ص ٦٦ ، ٦٩ ، ٨١ ، ٨٢ .

أصول إقتصادية وسياسية بجهة مرتبطة برفض عودة البيت الأموى إلى السلطة وتحويل نظام الدولة الإسلامية من نظام لبرالى جماعى أساسه العدل والديمقراطية والمشورة والمساواة بين أغنياء الناس وفقراءهم إلى نظام ديكتاتورى ملكى وراثى يستعيد فيه البيت الأموى الإقطاعى والتجارى وكل من ينتمى إلى طبقته كل امتيازاته غير المشروعة اجتماعياً ودينياً ، والتي كان يتمتع بها فى المجتمع المكى القديم وتقلصت بعد فتح مكة ، والأمر ينطبق كذلك على مراحل التاريخ الإسلامى اللاحقة وظهور الفرق والأحزاب والأفكار المتعددة التى سيأتى الحديث عنها ، فهى فى مجموعها تشكل فى الأساس نماذج وعينات ومؤشرات لقضايا اجتماعية واقتصادية وطبقية فى المقام الأول رغم المظلة الدينية الشفافة التى ظلت تستظل بها جميعاً وما لحق بجونها الحسنة من التنكيل والتشويه كما سنرى حالاً من خلال الفقرات الآتية :

إنجازات اليمين واليسار فى التاريخ والتراث

بعد عهد صدر الإسلام الذهبى ، وبالتحديد بانتهاء خلافة عمر بن الخطاب وبدء خلافة عثمان وعودة البيت الأموى الإرسـتقراطى إلى السلطة بصورة نهائية فى عهد معاوية إستعادت كل الطبقات البرجوازية والإرسـتقراطية القرشية فى المجتمع المكى القديم - وفى مقدمتها البيت الأموى- كل مصالحها الإقتصادية والسياسية والاجتماعية التى فقدتها بعد فتح مكة ، التى كانت بسببها تناصب الدهوة الإسلامية وصاحبها العداء والحقد والكراهية قبل الفتح . . بعد تلك الفترة الذهبية المشار إليها وبظهور هذه التحولات السياسية والإقتصادية ظهرت اتياران رئيسيان فى نطاق الدولة الإسلامية طوال تاريخها اللاحق تقريباً ، من أموى وعباسى وفاطمى ، وضم هذان التياران فى نطاقهما مختلف الإنجازات السياسية والاجتماعية المتعارضة تقريباً . . وهما تيار رسمى برجوازى وأرسـتقراطى قوى فى بدايته ، إقطاعى ورجعى متخلف وفى نهايته ، تمثل فى نماذج السلطة الأموية والعباسية والفاطمية المشار إليها ، وحتى عهد المماليك والأتراك ، ومناصرهم وشركائهم فى المصلحة أو التبعية خارج السلطة

من أحزاب و فرق ومذاهب كالأشعرية والجبرية والمرجئة .^(١) ثم مذاهب أهل السنة والحديث وهم أكثر اعتدالا إلى حد ما ، من مالكية وحنبلية وشافعية وحنفية وغيرهم من فلاسفة هذا الاتجاه والمحدثين عنه بتعصب ، والذين يمثل الإمام الغزالي بكل أفكاره وفلسفته الرافضة للفلسفة والعقل نموذج الحى والبارز .

أما التيار الثانى فهو تيار ثورى شعبى وعلمانى معارض ، من خارج السلطة للتيار السابق ومتناقض معه بحكم تناقض المصالح الاقتصادية والسياسية وطبيعة التركيب الطبقي والاجتماعى والإقتصادى لهذا التيار التى تختلف وتتناقض مع الطرف الآخر .

وقد تمثل هذا التيار فى فرق وأحزاب الشيعة بمختلف اتجاهاتهم اللبرالية والثورية المبكرة رغم الإجتهاادات المشوهة والمنحرفة يلعظم فرقهم فيها بعد حتى اليوم ، كما تمثل فى قم الفكر الاجتماعى والسياسى والعقلى والفلسفى الناضج للمعتزلة والخوارج والقرامطة والإسماعيلية القديمة وحركات الزنج وعلوج الأرض وغيرهم من فلاسفة ومفكرى هذا التيار الذين يأتى على رأسهم ابن

(١) الأشعرية هى الفرقة أو الجماعة السياسية التى أوصلت معاوية إلى الحكم من خلال قضية التحكيم المشهورة بينه وبين على ، والتى تزعمها أبو موسى الأشعرى وهو يسمى الأصل والمنبت وفد من منطقة زبيد إلى الرسول على رأس جماعة كبيرة للدخول فى الإسلام ، وهو الذى أبرم الحكم بين على ومعاوية لصالح معاوية فى قضية التحكيم المشهورة . والجبرية هى جماعة أو حزب سياسى يرتدى ثوباً دينياً ، أقامت فلسفتها السياسية والدينية على أساس أن الإنسان مجبر على ما يرتكبه من أفعال ، لأن الله هو الذى خلق الإنسان وخلق أفعاله وبالتالي فإن معاقبة الإنسان على ما يفعل أو محاسبته عليها ليس من العدل فى شئ . وقد كان الهدف الجوهري من وراء هذا الحزب وفلسفته هو تبرير ما قام به البيت الأموى من عمليات إغتصاب للسلطة بالقوة وإفراغها من مضمونها الدينى والشورى الأصل ، وتحويلها إلى ملك ووراثه ، ثم هو تبرير لأفعال وتصرفات أفراد السلطة والطبقة الحاكمة واتجاهها نحو الملذات والترف وجمع الأموال والضياع الخاصة وممارسة الظلم والحرمان والقهر والقسوة والتسلط الفردى . مما يتنافى مع جوهر الدعوة الإسلامية . والمرجئة هو مذهب لا يختلف عن سابقه إلا من حيث أن الإنسان إذا كان ولابد من محاسبته على أفعاله فهذا ليس من مهمة البشر فى الحياة الدنيا ، والأصح هو أن يرجأ هذا الحساب والعقاب إلى يوم القيامة ليتولى الله هذا الأمر ، والله أرحم بمعباده وأولى بحسابتهم ، وهو اتجاه لا يخرج فى جوهره السياسى والاجتماعى عن الاتجاه السابق .

رشيد وابن سينا والكندي وابن خلدون والراوندي والجاحظ وغيرهم ممن أسهموا بشكل ملحوظ في توطيد الأسس الأولى للحضارة العربية والأوربية الحديثة ولا تزال أفكارهم وتجاربهم الاجتماعية والسياسية تستجيب بنجاح أكثر وأكثر لمنطق العقل والتقدم الاجتماعي والانساني حتى اليوم ، وما يزال كل شيء تقريبا في واقعنا العربي والاسلامي القائم في موقع متخلف جداً بالنسبة لهم وما يسيطر على هذا الواقع من ألوان ومفاهيم وأشكال التخلف والانحطاط الفكري والعقلي^(١).

ولقد كان في تقديرنا إنتصار وتغلب التيار الأول بكل مفاهيمه وأبعاده في مقابل انهزام وانحسار التيار الآخر أمام ألوان البطش والتنكيل والتشويه الذي مارسه ضده التيار الأول عبر مراحل التاريخ العربي والاسلامي كله واضطراره إلى الضمور والانطواء حتى اليوم ، هو من أهم عوامل التقهقر الحضاري للأمة العربية والاسلامية على الاطلاق ، فبهزيمة وقتل العقل والحرية الانسانية تنهزم الحضارة ، وبانتصار النقل والتقليد المشوه والمفاهيم اللاعقلية والخرافية والأسطورية من أجل خدمة أغراض ومصالح طبقية وسياسية محدودة ، حتما تسقط الحضارة القادرة على السير بحياة البشر نحو الإرتقاء والتقدم أكثر فأكثر ، والعكس بالعكس صحيح ..

وهذا هو المدخل الإجتماعي في دراسة التاريخ والتراث الحضاري العربي الذي لم يحظ بعد بأي اهتمام جاد يذكر من قبل علماء الإجتماع والأنثروبولوجيا العرب وغيرهم باعتبار أنه يشكل الخلفية والمنطلق التاريخي

(١) إن أفضل من كتب حتى الآن عن هذه الجوانب بصفة عامة من الباحثين المحدثين برؤية معاصرة هو الدكتور محمود إسماعيل في كتابه الحركات السرية في الإسلام نشر مؤسسة روز اليوسف مايو ١٩٧٣ ، وأحمد عباس صالح في كتابه اليمين واليسار في الإسلام نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٢ ، والدكتور محمد عمارة في كتابه المعتزلة ومشكلة الحرية والانسانية ، الناشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٢ ، والدكتور أدونيس في كتابه الثابت والحوال من جزئين ، الناشر دار العودة بيروت ١٩٧٧ وبندلي جوزيف في كتابه من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ، الناشر دار الروائع بيروت « لم يحدد اسم المترجم ولا تاريخ النشر وهو كتاب حديث عموماً »

الهام الذى سيتيح لنا إمكانية إقامة علم اجتماع عربى ونظرية إجتماعية عربية متكاملة نقرأ من خلالها التاريخ ونفسره ونفسراً علمياً صحيحاً يساعدنا على حل مشاكل الحاضر وتحديد ملامح المستقبل المنشود .

وتمثل كل ذلك فيما أفرزته الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والطبقية فى إطار الدولة الإسلامية من تناقضات وصراعات ووقائع وأحداث اجتماعية وسياسية بارزة ، عكست فى مجملها طبيعة التركيب الإقتصادى والإجتماعى للمجتمع ، أكثر من كونها إنعكاس للخلافات الدينية والسياسية التى تقمصتها فى الظاهر ، وشكلت بذلك التاريخ الإقتصادى والإجتماعى والسياسى الحقيقى للمجتمع العربى وتطوره بالمفهوم والمنهج العلمى والجدلى المترابط الحديث الذى لم يكشف عنه النقاب أو يدرس بجدية وفقاً لهذا المفهوم حتى الآن .

فلو قمنا بتحليل الخلافات والصراعات المريرة حول فكرة الخلافة الإسلامية وماارتبط بها من الفتاوى الدينية والإتجاهات والمذاهب والفرق ذات الطابع الدينى من الناحية الشكلية كالأشعرية والخوانسار والشيعة والمرجئة والمعتزلة والإسماعيلية والقرامطة وإخوان الصفاء وغير ذاك^(١) لوجدنا بأنها قد أبطنت وارتكزت على مواقف وأبعاد إقتصادية واجتماعية وطبقية بالدرجة الأولى ، حيث يذكر المستشرق بندلى جوزى قوله : « عن إخوان الصفاء وهى جماعة إخوة قرمطية : بأنهم كانوا أول من قال بوجود تسخير « العلم والعمل » لسعادة الإنسان وهو ما قال به بعد مئات السنين « لاسال وماركس » وما أصبح اليوم شعار حكومة البلاشفة فى روسيا ، وأنها كانت أخوة قرمطية أسست فى البصرة لنشر المبادئ الإسماعيلية والسعى وراء تحقيقها بالطرق السلمية

(١) إقرأ بتفصيل أكثر عن هذه الفرق برؤية عصرية موضوعية للدكتور محمود إسماعيل فى كتابه الحركات السرية فى الاسلام مؤسسة روز اليوسف مايو ١٩٧٣ وأحمد عباس صالح « اليمين واليسار فى الاسلام » ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٢ ، ومحمد عمارة « المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية » بيروت ١٩٧٢ وأدونيس « الثابت والمتحول » دار العودة بيروت من جزئين الطبعة الأولى ١٩٧٧ م .

العقلية^(١) . وبينما كانت « الأشعرية » تمثل أقصى اليمين المتطرف كان الخوارج يمثلون الجانب المضاد والشيعة اليسار المعتدل والمرجئة حزب الوسط المتذبذب ، وكان المعتزلة رواد النظر العقلى والفلسفى^(٢) ، وهى بذلك تشكل فى جوهرها ومضمونها مواقف وخلافات سياسية وتناقضات اقتصادية واجتماعية بين الأقلية والأغلبية من ناحية ، وبين من يقفون على قمة السلطة وبين المعارضين لها من خارجها ، ويتعرضون بسبب ذلك لأنواع البطش والقمع والمصادرة الفكرية من ناحية أخرى .

كما تشكل هذه الفرق والمذاهب والأحزاب فى حقيقتها التجسيد الفعلى والعملى لمظاهر الصراع الطبقي والأيدىولوجى والتعصب القومى والنزعات الأسرية والعشائرية والقبلية ، التى كان يتضمنها التركيب الاجتماعى شبه الإقطاعى لمجتمع ما قبل الإسلام وما بعده ، إضافة إلى طبيعة المصالح الإقتصادية والاجتماعية المتباينة بطبيعة الحال ، حيث يؤكد الدكتور محمود إسماعيل قوله : « بأن ظهور حزب الخوارج هو تعبير عن تناقضات إقتصادية واجتماعية اكتسبت طابعاً دينياً نتيجة تفجير تلك التناقضات من خلال مشكلة الإمامة ؛ كما يؤكد أيضاً بأن كل الخلافات التى جرت حول الإمامة تعكس فى الأساس صراعا طبقياً واجتماعياً واقتصادياً^(٣) فكل هذه الظواهر التى ظلت تغطى كل مراحل التاريخ الإسلامى تقريباً وما يزال بعضها حتى اليرم قد برزت فى ثوب وحلة دينية ، وأضمرت مواقف وأهداف سياسية انعكاساً وتعبيراً عن أسس وأبعاد اجتماعية واقتصادية فى بناء وتركيب المجتمع نفسه ، ولقد كتب للشكل أو الإتجاه

(١) بندل جوفى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ دار الروائع بيروت (لم يحدد اسم المترجم ولا تاريخ النشر) وينظر فى هذا أيضاً كتاب التفكير الاجتماعى للدكتور أحمد الخشاب ص ٢١٣ ، دار المعارف ١٩٧٠ م .
(٢) د . محمود إسماعيل : الحركات السرية فى الاسلام مؤسسة روزاليوسف مايو ١٩٧٣ ص ٤٣ ، ٤٤ ، وأنظر فى ذلك أيضاً الدكتور أدونيس : الثابت والمتحول جزء ثانى ص ٨٥ (مرجع سابق) .

(٣) د . أحمد الخشاب : التفكير الاجتماعى دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية ص ٢٠٠ دار المعارف ١٩٧٠ ، وينظر فى ذلك أيضاً المرجع السابق ص ٢١ ، ٢٢ .

الدينى والسياسى الظهور والتطور والبروز باستمرار كعلوم ومذاهب وأفكار فى التاريخ والتراث الحضارى العربى والإسلامى لهذا السبب، بينما نسى أو غمرا البعد الاجتماعى الذى يشكل الخلفية الحقيقية لتلك الاتجاهات والأساس الأول لوقائعها فى حياة الدولة والمجتمع العربى والإسلامى وفى حياة أى مجتمع من المجتمعات قديمة كانت أم حديثة .

الوقائع العملية للخط الاجتماعى الثورى وظروفه

لقد تمثل الخط للراديكالى الثورى فى مجموعة من الأحداث والوقائع التاريخية والاجتماعية التى حظيت بالممارسة والتفسير والمعالجة المباشرة للأحداث والظروف وأساليب التفكير والسلوك من منظور اجتماعى واقتصادى إلى حد ما، دون اللجوء كثيراً إلى تقمص المداخل الأخرى دينية كانت أم أدبية، كالمذهب الفكرى والعقلى عند الممتزلة والسيامى والتطبيقات عند الخوارج والقرامطة، فى تنظيم الدولة والمجتمع، حيث تمكنت هاتان الفئتان من إقامة مجتمعات ودول فى مجموعة من الأقاليم والاستقلال بها عن سيطرة دولة الخلافة المركزية، من وقت لآخر أموية كانت أم عباسية، وذلك فى أقاليم البحرين واليمن بالنسبة للقرامطة وبلاد المغرب وعمان بالنسبة للخوارج . التى لم يكونوا يعترفون فيها بأى شكل من أشكال التمييز والمفاضلة بين فئة اجتماعية وأخرى لأى سبب من الأسباب . حيث يذكر الدكتور محمود إسماعيل بأن تركيب دولة الخوارج الصفيرية التى أقاموها فى الجهات الجنوبية الغربية من بلاد المغرب التى عرفت بدولة بنى مدرار وعاصمتها « سحلماسة » والتى أسسها وتولى أمرها « رجل زنجى يدعى عيسى بن يزيد الأسود » هو أمر بالغ الدلالة على إخلاص الخوارج والنزاهة بفكرهم السياسى الديمقراطى نظرياً وعملياً، وكذلك دول الخوارج الأباضية التى أقاموها فى عمان وبلاد المغرب (جنوب ليبيا) والتى أسسها عبد الرحمن بن رستم الفارسمى ما بين عامى ١٦٢ - ٢٩٧ هـ (١) ذلك لأن فكر الخوارج السياسى كما يقول الدكتور محمود إسماعيل أيضاً - قوامه المساواة

(١) هـ . محمود إسماعيل : الحركات السرية فى الإسلام مؤسسة روزاليوسف ١٩٧٢ ،

بين كافة العناصر والأجناس دون تفرقة أو تمايز ، وأن انتشار مذهب الخوارج في بلاد المغرب أحدث إنقلاباً في موازين القوى الاجتماعية هناك ، إذ هوت بعض العناصر التي كانت تحتكر السلطة السياسية وصعدت عناصر كانت مغلوبة على أمرها لتقف على قدم المساواة مع القوى الأخرى ونالت حظها في بعض الأحيان في قيادة الثورات وتبلى مقاليد الحكم والسياسة (١) .

أما دولة أو جمهورية القرامطة في البحرين كما يسميها « بندلي جوزي » فقد كانت أعظم شأنًا وأبعد مدى في تعاليمها ونظمها الاجتماعية ذات الطابع الجماعي والأشتركي الواضح ، والمفاهيم العقلية والعملية البحتة التي استمرت ما يقرب من خمسمائة سنة (٢) . وكذلك الحركة البابكية في خراسان وبلاد ما وراء و شمال نهر دجلة والفرات (٣) . وحركة الزنج وعلاو ج الأرض والذين كان دورهم في ثورة ابن الأشعث ضد الحكم الأموي في عهد عبد الملك بن مروان وعامله في بغداد الحجاج بن يوسف الثقفي من القرائن الدالة على لبرالية وعقلانية هذه الحركات الثورية في مقاومتها للسلطة الأموية بمضمون اجتماعي (٤) . وكذلك ثورة الجهم بن صفوان والحارث بن شريح في خراسان التي لم تكن مجرد ثورة عنصرية قام فيها الصراع بين العرب والفرس ، بل لقد ضمت بين صفوفها الطبقات المستضعفة من العنصرين معاً في مواجهة الارستقراطية العربية في خراسان ومن دار في فلكها من الارستقراطية الفارسية (٥) . والمعروف أن الجهم بن صفوان والحارث بن شريح هما من مؤسسي المذهب الأرجائي الثوري في خراسان (٦) . كل هذه الظواهر

(١) د . محمود اسماعيل : الخوارج في المغرب الاسلامي دار العودة بيروت ١٩٧٦ ص ٢١٣ .

(٢) بندلي جوزي : « من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ١٥٩ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ص ٧٨ وما بعدها .

(٤) د . أهوفيس : الثابت والمتحول الجزء الثاني ص ٦٤ وما بعدها .

(٥) الحركات السرية في الاسلام ص ٦٦ .

(٦) لقد بدأ هذا المذهب بزعمة معتدلة ثم عمل لصالح السلطة الأموية في أوج قوتها وفي أواخر أيامها ، وانتشر هذا المذهب في أوساط الموالى فتغير موقفه إلى جانب الاتجاهات الثورية الأخرى من شيعة وخوارج وغيرهم راجع في ذلك د . محمد عمارة : الخلافة ونشأة الأحزاب السياسية ص ١٦٣ إلى ١٧٥ .

والأحداث التاريخية بكل مدلولاتها العقلية والاجتماعية ذات الميول والملامح الجماعية والاشتراكية الواضحة إلى حد كبير تبلور في اتجاه مضاد بالنسبة إلى مختلف الاتجاهات الدينية والسياسية الأخرى ومذاهب السلطة الرسمية التي مالت بالتدرج إلى الحمود والتزمت واللاعقلانية .

وقائع الصراع النظري

وإذا ما أضفنا إلى الوقائع والأحداث التاريخية والاجتماعية الثورية السابقة مسار التتمكيز النظري والعقلي والعدائي المنحدر أيضاً للمعتزلة والشيعية الاسماعيلية المبكرة وبعض الفلاسفة الاجتماعيين كابن خلدون والعقليين كابن رشد لادركنا التكامل البنائي الرائع لإمكانية توفير المدخل الاجتماعي لدراسة هذه الأحداث وغيرها من وقائع التاريخ والتراث العربي الإسلامي عامة وتكوين نظرية إجماعية عربية في دراسة التاريخ والتراث منذ زمن بعيد .

لكنه حتى هذا المدخل الاجتماعي النظري والعقلي الواضح في التاريخ والتراث العربي المتمثل في فلسفة الاعتزال وفرق الشيعة المبكرة وآراء وأعمال المفكرين والفلاسفة الآخرين كابن خلدون وابن رشد والفارابي والراوندي وابن سينا وغيرهم قد تعرض لأنواع وأشكال مختلفة من النكسات المباشرة والغير مباشرة ، حيث تعرض للاضطهاد والقهر السياسي المباشر من قبل السلطة السياسية سواء كانت أموية أو عباسية أو فاطمية ، لأنه كان يمثل استفزازاً لها وتهديداً لمصالح الطبقات الارستقراطية الحاكمة فيها ، وقد رافق هذا القهر والتكبل السياسي محاولة مسخ وتشويه أيديولوجي وعقائدي معزز بأطر ومذاهب سياسية ودينية معينة كالمالكية والحملية والشافعية والخفية وهي مذاهب السلطة السياسية عبر مراحل التاريخ الإسلامي وحتى اليوم^(١) والتي كانت وما تزال قادرة على التعايش مع أى شكل من أشكال السلطة ومع أى شكل من أشكال التنظيم الإقتصادي والاجتماعي اليميني المحافظ ومنحة التبريرات الدينية اللازمة لبقائه ، وهي تنطوي في مجموعها تحت فكرة « أهل السنة والحديث » الذين يميلون إلى الرواية والإسناد

(١) راجع د. محمد عمارة : الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية ص ٢٥٧ .

(١٢م - المدخل الاجتماعي)

كل شيء ويحجمون عن الاجتهاد والقياس أو التفسير بالرأى والاستنباط العقلى ، فقد كان الارتباط وثيقاً بين الاتجاه العقلانى وعداء السلطة التيقراطية المحافظة ومذاهبها ، لذلك لم تحظ أفكار الاعتزال (وهم رواد النظر العقلى) برضى الخلافة السنية ، فقد تبارى أهل الحديث - كما يذكر الدكتور محمود اسماعيل - فى إعدام وإحراق مئات المصنفات من الفكر الإعتزالى إبان محنة المعتزلة فى عصر المتوكل تقريباً إلى الله . . . ! ! ونكاية فى خصوصهم (١) . فساعدت هذه المذاهب الدينية السائدة بالتعاون مع السلطة على تشويه هذا الاتجاه ووصفه بالكفر والزندقة . . . الخ ، وأوغلوا فى التنكيل بكل من ينتمى إليه وأحرقوا كل ما كتب عنه ووقع فى أيديهم وكل ما استطاعوا الوصول إليه من مئات وآلاف المصنفات القيمة ، حتى أنه لم يبق من مصنفات بعض هذه الفرق والمذاهب السياسية والاجتماعية فى الإسلام كالخوارج والقرامطة والإسماعيلية والمعتزلة إلا ما كتبه عنهم خصوصهم فى حينه وحتى الآن .

ولقد كانت آراء وأفكار الإمام الغزالى وعهده هو أعظم تجسيد لطابع تلك العلاقة المتناقضة والمتصارعة بين الاتجاهات الاجتماعية الراديكالية والعقلانية التى تحاربها السلطة ، وبين الاتجاهات السلفية المحافظة والمعادية لعقلنة الحياة وفهمها وتغييرها على هذا الأساس ، بتأييد من السلطة الحاكمة ، حيث يذكر أحمد عباس صالح فى كتابه « اليمن واليسار فى الإسلام » بأن الغزالى قد اعتبر « حجة الإسلام » وأستمر بتأثيره حتى العصور الحديثة وقبل سيادة المنهج العلمى فى البحث وهو - كما يقول - أستاذ أرستقراطى النزعة وأول مفكر إسلامى تصدى للفلسفة ليهدمها ، وقد لاقا تأييداً من السلطات القائمة فى عصره ، بينما أحرقت كتب ابن رشد (وهو معتزلى النزعة) فى الميادين بأمر السلطان وصودرت خزائنها وأمر بمعاقبة من يوجد لديه

(١) الحركات السرية فى الاسلام ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، وانظر فى ذلك أيضاً أقوال الجاحظ « وهو من مؤسس المعتزلة » فى أهل الحديث فى كتاب التفكير الاجتماعى للدكتور أحمد الخشاب ص ٢٠٥ .

كتاب لابن رشد ولم يقدمه في الاحتفال المهيب الذي أحرقت فيه كتب هذا الفيلسوف العظيم (١) . وحتى وإن كانت ما تزال هناك بقية من تراث هذه الجماعات في بعض المناطق فهو ما يزال ضمن دوائر سرية إجتماعية جداً كما تفعل الآن بعض فرق الشيعة في العراق والإسماعيلية في الهند واليمن وسوريا والحوارج في بلاد المغرب . (٢)

لقد كان يحدث كل ذلك بالرغم من أن الإطار الديني أو على الأصح المنطلق الديني للصراع السياسي والإجتماعي لم يكن حكراً على جماعة السلطة ومذاهبها وحدهم ، بل على العكس من ذلك فقد كان لهذه الفرق والجماعات التي شكلت التيار الثوري والراديكالي المعارض ببعده النظري والعلمي ، من شيعة مبكرة ومعزلة وقرامطة وغيرهم ، كانت لهم مصالحهم ومواقفهم الإجتماعية والسياسية والفكرية والتي عبروا عنها بأساليب ومذاهب دينية أيضاً لا تقل أهمية ونضجاً عن مذاهب خصومهم ، إن لم تكن هي في الحقيقة أكثر تقدماً ونضجاً واستجابة لمنطق العقل وحقائق الواقع الإجتماعية والتاريخية ، ولنفاوة الدعوة الإسلامية الصحيحة ، فهناك - كما يؤكد الدكتور محمود إسماعيل - تياران أساميان : أحدهما عقلاني هيوماني يبنه المعتزلة ورواد النظر العقلي في الإسلام ثم تطور على أيدي الفلاسفة كالكندي والفارابي وابن رشد : أما التيار السلبي الرجعي فقد مثله الأشاعرة والحنابلة ووصل إلى ذروته على يد الغزالي ، وتصارع الإتجاهان صراعاً مريراً لم يكن محض خلاف فكري مذهبي بقدر ما كان تعبيراً عن مواقف سياسية وقضايا اجتماعية (٣) .

إلا أن اختلال الميزان السياسي باستمرار لمصلحة الاتجاه السلبي المحافظ قد مكن له من البروز وممارسة أنواع القمع والاضطهاد الفكري والديني ضد هذه الجماعات والتيارات الوطنية الراديكالية والثورية الذي لم يتوقف عند حد القتل والنفي والتكفير ، بل وصل - كما سبق القول - إلى حد القيام

(١) أحمد عباس صالح : اليمن واليسار في الإسلام المؤسسة العربية لدراسات والنشر بيروت ، ص ١٩٧٢ م . ص ١١ .

(٢) الحركات السرية في الإسلام ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

بحرق ومصادرة وإعدام كل ما قالوه أو كتبوه ، وتلك هي النكسة الخطرة التي تعرض بسببها جانب كبير وأساسى من التراث الفكرى والاجتماعى والدبنى الرائع للضياع المحقق ، ولهذا السبب نفسه أيضا ظل الاتجاه الأول الأكثر محافظة ورجعية وتعصب ينمو ويتطور باعتباره الممثل الشرعى الوحيد للقيم والاخلاقيات الدينية والاجتماعية والسياسية فى التراث الحضارى بعامة حتى يومنا هذا ، بينما ظلت الاتجاهات الأخرى الأكثر ثورية وراديكالية وعقلانية وما تزال عرضة للتشويه والتشهير والتحريف غير المنصف ، وغمرت بذلك وحتى الآن صفحة مشرقة من أنصع صفحات التاريخ الحضارى العربى والإسلامى . ونحن فى الوقت الحاضر فى أمس الحاجة إلى ضرورة فتح هذه الصفحة وقراءتها على حقيقتها من جديد ، هذه الصفحة وهذا المسار الفكرى والاجتماعى المتحرر التى كان انتوائها « فى تقديرنا » هو السبب الأول والأساسى فى انطواء صفحة الحضارة العربية المزدهرة بكاملها واستسلامها للضياع والأفكار الضيقة والعقيمة حتى اليوم^(١) .

ومن الملاحظ بصورة عامة أنه بينما كان الاتجاه اليمنى المحافظ ممثلا فى السلطة الأموية ومن بعدها العباسية يتحرك بدوافع اقتصادية ومصالح مادية وسياسية مباشرة كانت قيادة الاتجاه اللبرالى اليسارى المبكرة بقيادة على وبنيه تتحرك بدوافع مثالية أكثر منها اقتصادية وسياسية مباشرة^(٢) . ولقد كان هذا المنطلق الرومانسى هو أشد نقاط الضعف فى تلك القيادة المبكرة والذي أودى بها فى النهاية ، وأفقد اليسار الثورى روح المبادرة وجره إلى الفرقة والتمزق فيما بعد وتعدد الإجتهدات مما يسر للطرف الأخر حسم الموقف السياسى لصالحه بعد وفاة على بل وفى حياته على يد معاوية وملاحقه خصومه من بعده من موقع السلطة .

وحتى تتجلى الصورة بشكل أوضح عن هذا البعد الاجتماعى المغمور والمشوه فى التاريخ والتراث العربى سوف نقوم باستعراض أهم مظاهره

(١) أنظر الدكتور أدونيس : الثابت والمتحول الجزء الثانى ص ٨٣ ، ٨٤ وما أورده الراوندى والرازى كحلل عقل للأفكار والمفاهيم المشار إليها .
(٢) اليمين واليسار فى الإسلام ص ١٤١ . وأنظر فى ذلك أيضاً د . محمد عمارة : الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية ، ص ١٥٥ و ١٥٦ .

وأبرزها من خلال الحديث التحليلي عن أهم المذاهب والفرق المكونة لهذا التيار والتعرف على طبيعة منشئها الاجتماعي ومبادئها الفكرية وتطبيقاتها العملية سياسياً واجتماعياً واقتصادياً .

مظاهر البعد الاجتماعي في التاريخ والتراث العربي

ونستطيع أن نحدد المعالم الرئيسية للبعد الاجتماعي في تفكير هذه الخطوط والاتجاهات الفكرية اللبرالية والعلمانية في التاريخ والتراث العربي بصورة موجزة ، وإدراك أهمية وقدرة البعد النظري والمنهجي للنظرية الاجتماعية الحديثة على تمثل الأحداث والمراحل التاريخية المختلفة والظواهر الاجتماعية تمثلاً حديثاً وموضوعياً وعلمياً والكشف عن طبيعة العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الكامنة وراء هذه الأحداث والظواهر المختلفة مهما كانت مظاهرها الخارجية والشكلية المقنعة بثوب ديني أو أدبي أو غيره ، وذلك من خلال استعراض وتحليل موجز لنشاط وأعمال وظروف أبرز هذه الخطوط والاتجاهات ممثلة في أبرز مذاهبها وفرقها وأحزابها الرئيسية وهي الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة والإسماعيلية والقرامطة .

أولاً - الشيعة منطلق الاتجاه الراديكالي الثوري بصفة عامة

تشكل الشيعة بزعامة علي وبنوه الإطار العام لكل الاتجاهات اللبرالية والراديكالية المبكرة التي برزت في مواجهة السلطة الأموية منذ وقت مبكر ، والبداية التي انطلقت منها وتفرعت من خلالها كل هذه الاتجاهات بصورة مباشرة وغير مباشرة ، فلقد كان علي بحكم نشأته البسيطة وظروف تكوينه الاجتماعي والشخصي هو أقرب القادة الإسلاميين في عصره إلى هذه الاتجاهات الثورية والراديكالية المتصلة بالسواد الأعظم من الناس والتعبير المناسب عن مثاليات الدين الإسلامي وأجدرهم جميعاً بقيادتها ، لا لأحققيته في الوراثة والنسب التي تفوق الكثيرون حولها فيما بعد واعتبارها أساس القضية^(١) وذلك في

مواجهة البيت الأموى وغيره من الفئات والطبقات التى فقدت أو تقلصت مصالحها السياسية والاقتصادية الضخمة ذات الطابع الإقطاعى والبرجوازى الواضح فى المجتمع المسمى القديم بعد فتح مكة^(١) . والتى بدأت تستعد لاسترجاعها منذ تولى عثمان بن عفان ، واكتمل لها ما أرادت بالفعل فى عهد معاوية الذى حسم الموقف سياسياً وعسكرياً واقتصادياً مع على وأتباعه لصالح البيت الأموى ، أو على الأصح مع التيار اللبرالى الشعبى فى عموم الدولة الإسلامية لصالح الفئات والطبقات الأوتوقراطية والأقطاعية وفى مقدماتها البيت الأموى^(٢) .

والشئ الملاحظ والذى تؤكدہ الأحداث والوقائع بأنه كانت توجد هناك ثغرة خطيرة فى الصف اللبرالى المناضل بقيادة على ، ربما كانت هى السبب الأول والأساسى فى تصدعه وانهاره رغم كل عوامل القوة السياسية والاجتماعية والدينية التى كان يتمتع بها وتعدد مسارات هذا الاتجاه فيما بعد ، وهى أن القيادة بزعامة على وبنوه كانت تسرك الأمور بصورة مغايرة لما تدركه القاعدة الراسعة من سواد الناس الذين يقفون ورائها باسماته ، فبينما كانت هذه القاعدة الواسعة والعناصر المستنيرة فيها تحاكم الأمور بمفهوم موضوعى سياسى واجتماعى واقتصادى واضح كانت القيادة وبعض أنصارها واقعة فى أسر المفاهيم المثالية الزائفة والرومانسية البعيدة عن تمثل ظروف الواقع ووضع حسابها ضمن عملية الصراع ، من ذلك مثلاً النظر إلى الخلافة باعتبارها حق إلهى لهذه القيادة لا يحتاجون معه إلى أى سند أو مبرر اجتماعى ، وإلى ما يفعله البيت الأموى باعتباره كفرأ وتعدياً على هذا الحق وخروجاً على مفاهيم الدين المثالية^(٣) وهذا يعنى أن الإمامه ليست « قضية مصلحية تناط باختيار العامة بل هى قضية أصولية »^(٤)

ولقد كانت قصة الخوارج أثناء حربهم فى موقعة « صفين » تحت قيادة على ضد معاوية الذى قبل بالصلح (أى على) وهو على وشك أن يحسم

(١) اليمين واليسار فى الاسلام ص ١٧ إلى ٣١ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٦ ، ٧٨ وما بعدها .

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٤١ .

(٤) أنظر دكتور أدوينى : الثابت والمتحول ، داز المودة بيروت ، ج ١ ص ١٩٧ .

الموقف عسكرياً لصالحه وأحسن معاوية بأنه على وشك أن يخسر الموقعة نهائياً فأمر أصحابه برفع المصاحف في وجه جند على وطلب الاحتكام إليها مع إيقاف القتال ، فبينما فهم أتباع على المدركون للخديعة ممن سموا فيما بعد بالخوارج هذه الخدعة من معاوية ورفضوها تأثر بها على مع بعض أنصاره برومانسيته ومثاليته الطيبة ، فأوقفوا القتال رغم إصرار الخوارج على عدم التوقف وتحذيرهم من نتائج هذه الخدعة السياسية ، حيث انتهى الموقف بالفعل فيما بعد بمهزلة التحكيم المعروفة التي رتبها الأشاعرة بطريقة خدعة دبلوماسية بارعة لصالح معاوية والتي قوت الشرعية لمعاوية في الحكم وأضعفت حق على في المطالبة به ، ولخروج الكثير من أتباع على عن هذا الموقف ومعارضهم ورفضهم له سموا « بالخوارج » والروافض^(١) .

وعن هذا الموقف وما بعده تعددت فيما بعد الآراء والمذاهب والأحزاب اللبرالية والعقلانية المختلفة وتطورت في اتجاهات أفضل رغم قسوة ما عانته من ظروف ، بينما ظل الخط المثلثي والمغرق في الرومانسية والمثالية الذي بدأه على وبنوه يشق طريقه هو الآخر ويتطور ولكن في اتجاه أكثر رومانسية وردانة وتحريفية لموقف على وأرائه نفسها ، من حيث تحول هذا الخط إلى مجموعة من المفاهيم الخرافية والأسطورية المغرقة في التظليل والمجافية لأدنى حدود العقل والعلم والمنطق ، وإلى مجموعة من العقد والأمراض النفسية والباثولوجية في المجتمع ، وهم ممن يعرفون حتى اليوم بفرق الشيعة الإمامية ، كأسطورة المهدي المنتظر الذي يعتقدون بأنه يعيش في سرداب خفي منذ أكثر من ألف عام ، وأنه سيخرج يوماً لبلقاء الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، والقول بخطأ فكرة نزول الرسالة والوحي على محمد بدلاً من على كما كان مفروضاً ، والخطأ يرجع في ذلك إلى « جبريل » الذي أخطأ في توصيل الرسالة والوحي إلى غير صاحبها ، وهذا ما تقوله بعض فرق الشيعة الإمامية كالذمية والعبائية والمغبرة والمنصورية ، وأن علياً ما يزال حياً في السحاب وأن البرق سيفه والرعد صوته ، إلى غير ذلك من الأفكار الخرافية والمسالك القردية والجماعية

الشاذة التي من السهل ملاحظتها في حياة هذه الجماعات حتى اليوم بوضوح ، وبالذات في العراق وإيران ، وباكستان ، يضاف إلى ذلك القول بعصمة الإمام من الخطأ وأنه فوق مستوى البشر وفي مصاف الأنبياء والملائكة المزهين ، وعدم جواز الأمامة إلا في ذرية علي ، وأن الزمان والدهر لا تنتظم شئونه إلا بوجود إمام للزمان سواء أن كان هذا الإمام ظاهراً أو مختفياً ، فهو الحاكم الحقيقي الذي لا يجوز الخروج عليه أو محاسبته^(١) .

يضاف إلى ذلك أيضاً ما أفرزه هذا الاتجاه بمرور الوقت من مشكلة ادعاء ورغبة الكثير من المتشيعين من جنسيات وقوميات مختلفة الانتساب إلى علي نظراً لما يترتب على مثل هذا الأمر من مكاسب اعتبارية وسياسية أهمها حق الوصول إلى السلطة والاستعلاء على الآخرين مما أدى إلى كثير من للانقسامات الاجتماعية والطائفية الخطيرة في المجتمع العربي حتى الآن ، وكذلك في المجتمعات الإسلامية الأخرى كالأهند وباكستان وإيران وبعض مجتمعات أفريقيا الإسلامية ، بالرغم من فساد هذه الفكرة علمياً واجتماعياً وعدم صحتها شأنها شأن غيرها من الظواهر المرضية الماثلة في المجتمعات والحضارات التاريخية والمجتمعات المختلفة المرتبطة بقضايا التفرقة والتمييز العنصري والسلالي التي أثبت العلم الحديث فسادها وارتباطها أصلاً بأهداف سياسية واجتماعية أكثر من أي شيء آخر^(٢) .

وهم يشكلون بأفكارهم ومعتقداتهم ومسالكتهم الشاذة هذه ما ينطبق عليه مصطلح الجيوب الحضارية والثقافية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، حيث صاروا يمثلون أقلية من الدراويش الذين يمكن اعتبارهم الشيعة الحقيقيين في الوقت الحاضر ، والامتداد الطبيعي والمشوهة لما قبلهم ، أما الاتجاهات

(١) انظر عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر ، الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٧٣ والنظر في ذلك أيضاً كتاب الثابت والمتحول للدكتور « أدونيس » الجزء الأول دار العودة بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٤ ص ١٩٧ إلى ٢٠٣ .

(٢) راجع المجلة الاجتماعية القومية عدد خاص عن التفرقة والتمييز العنصري العدد الثالث سبتمبر ١٩٧١ القاهرة ، وانظر أيضاً مقال بعنوان « الجذور الاجتماعية والاقتصادية لأشكال التفرقة والتمييز العنصري والسلالي » «مجلة الغد اليمنية» ص ١٨ عدد سبتمبر ١٩٧٦ م .

الأخرى الأكثر لبرالية وعقلانية فقد شقت طريقها في اتجاه أكثر نضجاً وموضوعية من خلال العديد من المذاهب والمدارس الفكرية والأحزاب السياسية والحركات والأحداث الثورية التاريخية رغم أن الشكل ظل يربط بينهم قاسم مشترك رفيع هو فكرة التشيع التي لم تكن تعنى بالنسبة لبعض الجماعات والأحزاب اللبرالية والراديكالية الثورية داخل الدولة الإسلامية كالقرامطة والإسماعيلية والزيدية المبكرة أكثر من مجرد فكرة للمناورة السياسية ولا يترتب عليها أى التزامات محددة من أى نوع مما سبق ذكره وبالذات « القرامطة ».

ثانياً : الخوارج يسار الفكر السيامى

لقد جاءت هذه التسمية كما سبق القول بسبب خروجهم واختلافهم مع على في واقعة « صفين » وقد عبروا بذلك عن أنفسهم كحزب سيامى أكثر ثورية وتطرف بالنسبة للسلطة الأموية ولعل وأتباعه المعتدلين ، فإذا كانت سلطة معاوية تمثل أقصى اليمين وعلى اليسار المعتدل لهذا اليمين المتطرف فإن الخوارج بموقفهم ذاك قد شكلوا اليسار المتطرف لليسار المعتدل ، بينما مثل تيار فكري آخر هو تيار الفكر الإرجائى « المرجئة » حزب الوسط وستحدث عنهم بعد قليل ، ولقد برهن الخوارج على صدق اتجاههم الفكرى والعملى من خلال الإنتشار الواسع لحزبهم في أوساط بسطاء الناس والسواد الأعظم من المجتمع داخل الدولة الإسلامية على اختلاف قريباتهم واجناسهم ومعتقداتهم ، لأنهم لم يكونوا ليرو أى فوارق اجتماعية بين جميع مواطنى الدولة الإسلامية ، يترتب عليها فوارق وامتيازات في الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية بما في ذلك عدم ربط حق الإمامة بهلى وبنيه وهى الفكرة التى يتمسك بها ويتعصب لها الكثير من التشيعيين والإمامية منهم بالذات ، على اختلاف مناهجهم ، أو حتى بالعنصر العربى وحده ، ولقد كانت تطبيقاتهم السياسية والاجتماعية من خلال دولهم التى تمكنوا من إقامتها في بلاد المغرب وبلاد عمان هى أعظم دليل على صدقهم وإخلاصهم لمبادئهم ، حيث قام بتأسيس الدولة الأولى - كما سبق القول - في الجهات الجنوبية الغربية من بلاد المغرب وهى دولة بنى مدرار رجل زنجى يدعى عيسى ابن يزيد الأسود ، وقام بتأسيس الدولة الثانية ما بين عامى ١٦٢ ، ٢٩٧

رجل فارسى يدعى عبد الرحمن بن رستم^(١) وطبقوا فى حياتهم الإخاء الحقيقى والمساواة السياسية والاجتماعية إضافة إلى حرية العقل والتفكير ومحكمة الأمور من هذا المنطلق ، فقالوا شأنهم شأن المعتزلة والإسماعيلية بقدوم العالم ومعارضة فكرة الخلق وحق الإنسان فى الحرية والاختيار للفعل وتأويل الأشياء وعدم أيقاف التفكير عند مظاهره الخارجية والشكلية^(٢) .

وهم الذين قالوا أيضا : إذا لم يعدل الإمام فى الرعية ، ويقسم النىء بالسوية ويعطى العطاء ، ويسوى بين الناس فى الأرزاق ، ويكفى العامة ، ويفدى الأسير ، ويجاهد العدو ، ويقيم لهم الحجة ، ولا يستأثر دونهم بالنىء ، كان عاصيا ، وكل من رضى بإمامته كان عاصيا ، وقد أخذ عليهم خصومهم هذا الرأى من المذمات التى أخرجوهم بها عن حدود الإسلام أمثال الشافعى وابن حنبل وغيرهم من القائلين بوجوب طاعة الإمام وعدم الخروج عليه حتى لو كان ظالماً تجنباً للفتن^(٣) .

ثالثاً - المرجئة حزب الوسط المتذبذب

وفى مقابل التيار اللبرالى المتشدد الذى قاده الخوارج ظهر تيار مضاد فى الصراع السياسى والطبقى وهو تيار الفكر « الإرجائى » والذى انبثقت تسميته من طبيعة مضمونه العقلى والفكرى الذى يقوم على فكرة إرجاء وتأجيل الأمور والقضايا المتعلقة بأفعال الخلق مهما كان خطؤها فى الوقت الحاضر إلى أجل غير محدود فى المستقبل ، وقد يمتد هذا الأجل إلى حياة ما بعد الموت حيث يفصل بالحق والعدل فى كل شىء إذا لم توافى فرصة لحل هذه الأمور والقضايا فى هذه الحياة الدنيا ، بما فى ذلك شئون الظلم والإجرام والبطش وارتكاب المحرمات والكبائر ، خصوصاً ما يتعلق منها بعلاقة الحاكمين بالمحكومين . وهذه الفكرة التى قام على أساسها الفكر الإرجائى ذات دلالة اجتماعية وسياسية بعيدة الغور والمغزى ، فقد أرادوا من خلالها التعايش مع طرفى

(١) دكتور محمود إسماعيل : الحركات السرية فى الإسلام ص ٣٦ - ٣٩ .

(٢) راجع تفاصيل أكثر د . محمد عمارة : الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية ، ص ١٣٩ إلى ١٤٨ .

(٣) دكتور ادونيس : أنظر الثابت والمحول الجزء الثانى ص ٣٠ ، ٣١ .

الصراع من حولهم ، فهم من خلال هذا المنطلق الفكري الأصيل في موقفهم قد أرضوا اتجاه اليسار الراديكالي الثوري بكل مساراته من شيعة وخوارج ومعتزلة وغيرهم من المعارضين للسلطة بالإقرار بأن ماتفعله سلطة الدولة الأموية وما انبنت عليه منذ البداية وما يقترفه حكامها ضد الفئات الأخرى المعارضة يعتبر خطأ وغير مقبول اجتماعياً ودينياً. لكنهم لا يوافقون في الوقت نفسه على عمل أى شيء ضده في الوقت الحاضر ويقولون بإرجائه إلى أجل غير محدد قد يمتد إلى « يوم القيامة » وهم بذلك قد خدموا السلطة الأموية خدمة كبيرة بتشبيط كل شكل من أشكال المقاومة والمعارضة الفعلية وشل حركتها ، محتفظين في الوقت نفسه من خلال فكرهم هذا بمصالحهم الاقتصادية والاجتماعية كطبقة وسطى ليست لها مطالب جذرية شأن كل الطبقات والشرائح الاجتماعية الوسطية في كل المجتمعات قديماً وحديثاً ، والتي ترغب دائماً في التعايش والوقوف مع الأقوى حتى إذا ما بدأ يضعف كانت هي أول من يتخلى عنه . ولقد كان المذهب الإرجائي كذلك كفكر وأيدولوجية للطبقة والشرائح الوسطية في بداية الدولة الأموية ، حيث انحاز إلى جانبها أكثر فأكثر حينما قويت شوكتها وراح يبرر مواقفها ضد خصومها ، فبينما كان الخوارج ينادون بتكفير مرتكب « الكبيرة » ويصفه المعتزلة في المنزلة بين المنزلتين أى بين الكفر والإيمان ، فلاهو بالكافر ولا بالمؤمن وإنما اعتبر « فاسقاً » رأت المرجئة التوقف في الحكم وإرجاء الأمر إلى الله ، وقالوا بأن الإيمان تصديق بالقول دون العمل ، وأن مادون الشرك مغفور والعبد إذا مات على توحيده لا يضره ما اقترف من الآثام واجترح من السيئات^(١). يشاركونهم في ذلك أهل السنة والحديث ، حيث يرى الشافعي وابن حنبل وجوب طاعة الإمام وعدم الخروج عليه حتى لو كان ظالماً فاجراً وذلك تجنباً للفتن وإذا مات الخارج على الإمام مات ميتة جاهلية^(٢) .

ولقد تغير هذا الموقف للمرجئة من مناصرة وتبرير السلطة الأموية إلى

(١) د. محمود اسماعيل : الحركات السرية في الإسلام ، ص ٤٤ إلى ٥٠ وينظر في نفس الموضوع الحياط ص ١٦٥ والأشعري في مقالاته الاسلاميين ص ١٤١ .
(٢) د. دونيس : الثابت والمتحول ، الجزء الثاني ص ٣١ .

موقف المناوء لها حينما ضعفت في أخريات أيامها بل وساهم في إسقاطها بعد أن لاح في الأفق قوة المعارضة بمختلف اتجاهاتها ، ولقد كان من أهم عوامل تحول المرجئة من موقف الوسط المتذبذب إلى موقف اليسار اللبرالى الثورى بلا رجعة هو — إلى جانب إمكانية ذلك باعتبارها أفكار فئة وسطية كما سبق القول — إنتشار هذا المذهب بين الموالى وبسطاء الناس ، حيث يذكر الدكتور محمود إسماعيل بأنه ما كان للإرجاء أن يصبح مذهباً ثورياً إلا بعد أن اعتنقه الموالى ، ذلك أن الموالى قد انخرطوا في أحزاب المعارضة لا كسباب ثوراتهم شكلاً شرعياً لإستناداً إلى ركانر دينية ، فكانوا قسمة بين أحزاب المعارضة الثلاثة (الخوارج والشيعية والمرجئة أخيراً) وهكذا تطور حزب الوسط الإرجائى الذى بدأ معتدلاً ثم انتهزياً مبرراً للسلطة إلى مناوئ لها يدعو للإصلاح ثم انتهى به المطاف إلى أن صار حزباً ثورياً قحاً مثل سائر أحزاب اليسار ، أسهم بدور كبير في إسقاط حزب اليمين الأموى الذى أجهزت عليه الثورة العباسية وهذه هى حقيقة فكر الوسط دائماً يجارى يحارى ولا يقاوم .

فقد كانت ثورة الجهم بن صفوان والحارث بن شريح في خراسان وهما من مؤسسى المذهب الإرجائى الثورى هناك ثورة شعبية ولم تكن ثورة عنصرية يقوم فيها الصراع بين العرب والفرس ولكنها — كما يؤكد الدكتور محمود إسماعيل — ضمت الطبقات المستضعفة من العنصرين معا في مواجهة الأرسقراطية العربية في خراسان ومن دار في فلكها من الأرسقراطية الفارسية القديمة^(١) .

والذى نستطيع أن نؤكد أنه أيضاً إضافة إلى ماسبق هو أن عملية التغير والإنتقال بمواقف المرجئة هذه عبر كل تلك المواقف وما انتهت إليه هو أنه لم يكن إنتقال في الموقف والرأى فحسب بقدر ما كان إنتقال في الشريحة والطبقة الاجتماعية الذى نجم عنه إنتقال جذرى في الفكر والممارسة أيضاً ، فانتقال الفكر الإرجائى إلى فئات الموالى وسواد المجتمع أو دخول هؤلاء فيه على الأصح هو الذى أدى إلى تغييره وتحوله جذريا من فكرة ومذهب للطبقة الوسطى

المتذبذبة والانتهازية إلى فكر ومذهب للطبقات الإجتماعية الفقيرة والمسحوقة في المجتمع ومعبر عن ظروفها ومصالحها السياسية والاقتصادية شأن بقية أحزاب اليسار الأخرى .

وبينما أخذ الفكر الأرجائى في التحول في هذا الاتجاه إنبثق عنه في الوقت نفسه مواقف واتجاهات أخرى احتفظت بنفس الموقف التقليدى بل وزادت عليه في تعصبها ودفاعها عن السلطة الأموية وعن مصالح الطبقة الوسطى والعليا المرتبطة مصيرياً بهذه السلطة ، وهم الذين عرفوا « بالخبيرة » ومنهم « الجهمية » أساس الفكر الأرجائى الجبرى فى الإسلام و « القطعية » و « النجارية » و « الضرارية » و « الحفصية » و « الراوندية » أهل الأثر وأصحاب الحديث و « الأشعرية » وهم الخبيرة المتوسطون ومنهم الغزالي (١) وأساس فكرة الجبر والإلزام هذه كما يقول محمد عمارة عند أئمتهم هى أن المطلوب إنما هو إضافة الأعمال والأحوال ، أعمال الإنسان وأحواله إلى الله وأن يتبرأ الإنسان من نسبتها لنفسه وأن يعتقد عدم ملكيته لها وبانتفاء سلطانه عليها ، وهذا هو عين رأى الخبيرة (٢) ولهذا رأى دلالة السياسية والاجتماعية الأكثر يمينية وخطورة ، فالخبيرة بمختلف فرقها بهذا المفهوم كانت تمثل مذهب التبرير المطلق لتصرفات الدولة الأموية وحكامها وأن كل ما يصدر عن حكام السلطة لا يصدر عنهم بمحض إختيارهم ، وإنما هم مجبولون عليه بتقدير من الله سبحانه وتعالى وأفعالهم منسوبة إليه لا إليهم فهى جزء من أحكام القدر التى لا دخل لهم بها ولن يحاسبوا عليها وفقاً لمبدئهم الأساسى بأن الإنسان « مسير لا مخير » وهو المبدأ الذى دارت حوله المجالات الطويلة والصراعات المريرة ممن يقولون به أمثال هؤلاء ومن يرفضونه ويؤكدون بأن الإنسان « مخير لا مسير » من أصحاب الموقف المضاد كالمعتزلة والشيعة المبكرة على اختلاف نزعاتها .

وفكرة « الجبر » هذه هى فكرة قديمة سابقة على ظهور الإسلام وأن

(١) د . محمد عمارة المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية ص ٢٨ وما بعدها ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٢ م .

(٢) د . محمد عمارة : المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية ، ص ٤٢ .

فكرة « الاختيار » التي ظهرت بعد الإسلام ومن خلال مبادئه قد جاءت لتناقض جبرية العرب قبل الإسلام ثم طرأ وضع سياسي جديد في عهد معاوية جعل الفكر الجبري يعود إلى الإنتعاش والانتشار من جديد كما أن المعتزلة وهم قادة النظر والتحليل العقلي في الإسلام بلا منازع قد ربطوا باستمرار بين نظرية « الجبر » وبين السلطة الأموية ورأوا بأن لهذه الأفكار الجبرية أبعاداً سياسية في المجتمع بل لقد اتهموا معاوية بأنه أول من أشاع هذا اللون من الفكر حتى يدعم سلطته . (١)

رابعاً - الاسماعيلية : جوهر الفكر اللبرالي الديني الناضج

إذا كان في إمكاننا الآن وعلى ضوء ما سبق أن نحكم بأن الخوارج قد ابتعدت عن الشيعة كثيراً وتحولوا إلى حزب سياسي محترف إن جاز هذا التعبير شأنهم شأن المجبرة والمرجئة مع مراعاة الفوارق الجوهرية في المنطلق والغاية ، وأن الخط المثلث الرومانسي لقيادة علي وبنيه قد تطور في اتجاه منحرف عن موقف علي نفسه وأكثر رومانسية وإغراقاً في الخيال والخرافة والأساطير والتعصب على يد غلاة الشيعة الأمامية اللاحقة ، فإنه يمكن القول بأن الاسماعيلية كانت هي أقدر الفرق والمذاهب الفكرية على الاحتفاظ بجوهر فكر الموقف الشيعي اللبرالي المبكر لعل وتطويرة في الاتجاه الأفضل وإعطائه الأبعاد الفكرية والفلسفية المتعمقة والملامح الاجتماعية والسياسية البارزة والمحددة ، الأمر الذي يؤكد « بندلي جوزي » بالنسبة لطبيعة منشأ وتطور هذا الاتجاه ، حيث يذكر بأن نشأة الحركة الإسماعيلية وأكثر الحركات الاشتراكية واليسارية والأدبية التي هزت العالم الإسلامي هزات عنيفة وزلزلت أرضه وسماؤه هي الشيعة العلوية ، وقد سميت بالإسماعيلية نسبة إلى الإمام السابع من أئمة الشيعة وهو إسماعيل ابن جعفر الصادق (٢) .

(١) راجع يصفة عامة د . محم عماره : الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية ، ص ١٦٣ إلى : ١٧٥ ، وبالذات ص ١٧٤ .

(٢) بندلي جوزي : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ، دار الروائع بيروت

ولقد شكلت الإسماعيلية تنظيماً سياسياً واجتماعياً بالغ السرية والتعقيد والدقة من ناحية وعميق الفكرة الفلسفية والرؤية السياسية والاجتماعية من ناحية أخرى ، شديد الجرمية والتحدى من ناحية ثالثة . ومن أبرز مبادئ هذا التنظيم أنه قد قام بنشر دعوته وأفكاره السياسية والاجتماعية بين مختلف الطوائف الاجتماعية البسيطة على اختلاف جنسياتها ومعتقداتها الدينية من مسلمين وغير مسلمين ممن تضمهم مصلحة اقتصادية واجتماعية وسياسية مشتركة في نطاق الدولة الإسلامية وخارجها ، وآمنوا بإمكانية تعايش المعتقدات الدينية المختلفة وضرورة تعاونها في سبيل تحقيق أهداف اجتماعية واقتصادية مشتركة تقوم على أساس الأخاء الإنساني الحقيقي والمساواة التامة (١) . ورفضوا التفسير الظاهري للأشياء وأخضعوها للتأويل والتحليل العقلي المجرد ؛ بما في ذلك القرآن نفسه . وهم بذلك كما يقول « بندلي جوزي » أول بدعة في الإسلام يجوز أن يطلق على أصحابها اسم « العقلين » من رجال الدين كما نادوا بمساواة الرجل بالمرأة وإبطال ملكية الأراضي وتوزيعها على المحتاجين إليها مجاناً . (٢)

وبالرغم من أنهم قد عانوا من أنواع القهر والاضطهاد وصنوف التشويه والتشهير والتكفير المغرض والمقصود من خصومهم والمعادين لأفكارهم ومبادئهم من أهل السنة والحديث ومذاهب السلطة المختلفة ووصفهم بما لا يمكن أن يصدقه عقل من المذمات الخلقية كالإباحية وإبطان الكفر وإحلال نكاح البنات والأخوات وغير ذلك مما رواه أبو منصور البغدادي في كتاب « الفرق بين الفرق » (٣) وكذلك الحمادي في كتابه عن القرامطة والإسماعيلية

(١) د . أحمد الخشاب : التفكير الاجتماعي ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٠ م ص ٢٠٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٩ . بندلي جوزي : من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ، ص ١٣٩ .

(٣) الفرق بين الفرق لأبي منصور البغدادي ص ٢٨١ ، ٢٩٠ (نقلا عن المرجع السابق).

في اليمن والبحرين (١) . وغيرهم من المتحاملين عليهم حتى اليوم ، إلا أن آرائهم لا تدل على الصفات الحقيقية للإسماعيلية بقدر ما تدل على حدة الصراع السياسي والاجتماعي الكامن وراء كل هذه المظاهر المقنعة ، بالرغم من كل ذلك فإن آرائهم الفكرية والفلسفية والاجتماعية الناصجة قد تركت بصماتها وآثارها الواضحة بشهادة كل الباحثين المنصفين في العصور الحديثة ، ليس في رأى معتنقيها ومناصريها فحسب وإنما في مختلف مسارات واتجاهات التفكير الاجتماعي والفلسفي والإنساني عامة ، ليس على النطاق العربي والإسلامي فحسب بل وعلى نطاق التفكير الأوروبي والمسيحي والبوذي أيضاً وحتى الآن .

فالفلسفة تدين لهم برسائل « إخوان الصفاء » وهي أول دائرة للعلوم والمعارف في العالم كما يؤكد « بندلي جوزي » حيث مهدوا بذلك لأفكار الفلاسفة كالفارابي وابن سينا وغيرهم ، والتي تشكل آراء وأفكار الإسماعيلية الجذور الحقيقية لهذه الفلسفة ، يضاف إلى ذلك الآراء والنظريات المبتكرة التي تضمنتها الرواية الشهيرة « حى بن يقضان » لابن طفيل (٢) ، والأفكار الجريئة للمتصوفة الناضجين كالخللاج وابن عربي . (٣) وكذلك بعض الجماعات والأخويات الصوفية كالتقشبندية والرفاعية والبكداشية لها أصول إسماعيلية رغم ما تعرضت له من التحريف من أخويات اجتماعية وسياسية عقلانية فلسفية إلى أعمال درويشية خالية من أى مضمون موضوعي . (٤)

(١) القرامطة : للحمادى أحد فقهاء اليمن في القرن الخامس الهجرى وهو من أهل السنة والحديث تحدث بمصعب عن قرامطة وإسماعيلية اليمن والبحرين . الكتاب في دار الكتب بصنعاء .

(٢) د . أحمد الخشاب : التفكير الاجتماعي ، ص ٢٦٦ وما بعدها .

(٣) د . محمود قاسم : محي الدين بن عربي ، مكتبة القاهرة الحديثة الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢ م ص ١١٢ .

(٤) د . أحمد الخشاب : التفكير الاجتماعي ص ٢١٢ وما بعدها .

ويذكر « بندلي جوزى » عن تأثير أفكار وتنظيمات الإسماعيلية على غير المسلمين من مسيحيين وغيرهم واقتباسهم لأنظمتهم وأفكارهم ما نصه : « نحن لا نرتاب في صحة هذا الفكر كما إننا لا نرتاب اليوم في صحة فكر آخر وهو أن تأثير المبادئ الإسماعيلية الباطنية لم ينحصر في المجتمع الإسلامى والشرق على الإطلاق بل تعداه إلى أوروبا وبعض الأمم المسيحية ، وهناك ترك أثرا بيناً في حياة تلك الأمم الفكرية وأنظمتهم الاجتماعية ودايرتهم وجمعياتهم إلى غير ذلك مما لا يسعنا الوقت إلى التبسط فيه (١) .

(١) بندلي جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ، ص ١٦٠ وما بعدها .